(١)

عهـــد

أعترف بأنى لا أهاب شيئا كما أهاب رضى الناس عنى ، ولا أشفق من شيء كما أشفق من حسن ظنهم بى . فأنا ــ شهد الله ــ قلما أرضى عن نفسى أو أحسن الظن بها وما أذكر أنى كتبت شيئا أو أتيت شيئا من الأمر إلاوأنا مؤمن بأنه دون ماكان ينبغى أن أكتب ، ودون ما كان ينبغى أن آتى من الأمر ، ودون ما ينبغى أن يرضى هؤلاء الأصدقاء الذين أعرفهم والذين لا أعرفهم ، والذين يتفضلون علىفيرضون عنى ويحسنون الرأى فى ، وأعجز أنا عن تصديق هذا الرأى أو تصويب هذا الرضى .

كذلك كنت منذ بدأت أكتب ، ومنذ بدأت أنهض بشيء من أعباء الحياة العامة . ويظهر أنى سأظل كذلك أبدا . فقد جاوزت من أطوار الحياة هذا الطور الذى يستطيع الناس أن يغيروا فيه آراءهم فى أنفسهم ، ويحسنوا بها الظن ، وينتظروا لها النمو والرقى والتقدم نحو الكمال .

لذلك لا أدرى كيف ألقى هؤلاء الأصدقاء الذين عرفوا أنى سأكتب فى « الكوكب » فأحبوا ذلك ، ورضوا عنه ، وغلا بعضهم فاغتبط بهوابتهج له : نعم ، ولا أدرى كيف ألقى هؤلاء الذين تفضلوا فدعونى إلى الكتابة فى الكوكب ، وألحوا على فى ذلك إلحاحاً ملؤه المودة والبر ، والرغبة فى الخير لى ، وللقراء مما سأكتبه .

كوكب الشرق فى ١٩٣٣/٣/٩ ، عدد ٢٣٢٨

نعم ، لا أدرى كيف ألقى أولئك وهؤلاء ، لأنى شديد الإشفاق من العجز عن تصديق أولئك وهؤلاء ، وتحقيق القليل أو الكثير مما ينتظرون : ومع ذلك فقد أجبت شاكرا دعوة الداعين ، وقبلت مغتبطا رضى الراضين وأقبلت إلى أولئك وهؤلاء ، وأنا واثق مطمئن إلى أنى لم أبلغ ما يأملون فى ، ويرجون منى ، فلن أقصر عن الإخلاص الذى ليس فوقه إخلاص ، ولن أفتر عن النصح الذى ليس بعده نصح ، ولن أضن بقوة أملكها ، أوجهد أقدر عليه ، وإنما أبذل هذا كله صادق الرأى ، ماضى العزم ، قوى الأمل كأحسن ما يكون الرجل استعدادا لاستقبال الخطوب ، واحتمال الآلام فى خدمة هذا البلد الحزين .

وما أظن أن المصرى يملك فى هذه الأيام شيئا يستطيع أن يقدمه إلى وطنه خيرا من الإخلاص والنصح وصدق العزيمة ، وحسن الاستعداد لاستقبال الخطوب ، فإن كان هذا هو الذى ينتظره منى أصحاب الكوكب وقراؤه ، فهم واثقون منذ الآن بأنهم سيبلغون منه ما يريدون ، وإن كانوا ينتظرون منى غير هذا فليعذرونى إذا لم أعدهم بشىء .

وأى شىء يستطيع العاملون أن يقدموه إلى مصر فى هذه الأيام التى قصت فيها الأجنحة ، وشدت فيها الألسنة فلا تقول إلا بحساب ، وعقلت فيها الأقلام فلا تجرى إلا بمقدار ، وضيق فيها على الناس فهم مضطرون إلى أن يفكروا ويطيلوا التفكير قبل أن يقولوا أو يكتبوا ، وإلى أن يقدروا فيطيلوا التقدير قبل أن ينشطوا لأمر من الأمور . كل شىء ضيق من حولنا ، فقد استكشفت الوزارة منذ نهضت بالحكم أو منذ همت أن تنهض بالحكم أن الدستور أوسع مما ينبغى ، فضيقته وبالغت فى تضييقه . ولم تكد تعلن إلينا هذا التضييق وتأخذنا بتصغير عقولنا ، وتقصير ألسنتنا والكبح من أقلامنا ، والحجر على آمالنا لتلائم حياتنا الدستور الجديد ، حتى استكشفت أن هذا الدستور الجديد نفسه يكفل لنا حريات أكثر مما ينبغى وإذا هى تضيق هذه الحريات بألوان التشريع مرة ، وبسلطانها الإدارى مرة أخرى ، وإذا هى قد اتخذت موازين

دقيقة شديدة الدقة ، رقيقة مسرفة الرقة ، حساسة حادة الحس ، تقيس بها ما نرى وما نقول وما نفعل ، وتأخذنا بما تنكر هى من ذلك كله ، لا بما ينكر العرف ، ولا بما ينكر الدستور ، ولا بما تنكر الديمقراطية الغالية فى الضيق. وإذا انتقالنا فى الغدو والرواح يرصد ويرقب ويقدر فيباح أو يحذر . وإذا كلامنا يؤول على وجهه حينا ، وعلى غير وجهه أحيانا . وإذا تفكيرنا يتهم ، وإذا كل شىء نأتيه مرغوب عنه ، وكل شىء نأباه مرغوب فيه . وتمضى الأسابيع والأشهر وإذا الوزارة تستكشف أن هذا السياج الضيق الذى أحاطتنا به وحصرتنا فيه لا يكفى لأن عقولنا لا تزال واسعة أوسع من هذا السياج ، وإرادتنا لا تزال قوية أقوى من سلطان الوزارة . فلابد إذن من أن تضيق العقول ، وتضعف الإرادة ، وتنحل العزائم : وأى وسيلة أدنى إلى تحقيق هذا من تضييق التعليم ومراقبته والسيطرة الشديدة المحرجة عليه فى جميع فروعه وألوانه ، وإذن فلتبسط الوزارة سلطانها (وقد فعلت) على التعليم ، ولتجمعه كله إليها ولتحصره كله فى يدها ، ولتضغطه ما وسعها الضغط ولتقبضه ما وجدت إلى قبضه سبيلا .

هذه مدارس لم يكن لها عليها سلطان ، فيجب أن تظلها بجناحها ، وهذه مدارس حرة قد يجد التعليم فيها من السعة ما لا تحب ، فلتشرع لها القوانين التى تردها إلى حيث تريد هى من الضيق . وهؤلاء أبناء الشعب يقبلون على التعليم أفواجا ، فلتتخذ العدة لمقاومة هذا الإقبال الخطر . وأى شىء أخطر على مثل هذا السلطان الذى لا يريد أن يكون له حد من إقبال الناس على فروع التعليم الراقى .

هذا وزير المعارف يعلن فى مجلس النواب أن لابد من تضييق التعليم الثانوى والعالى لأنهما يخرجان لمصر من الشبان المثقفين أكثر مما ينبغى . فلتتوسع فى التعليم الأولى لنحارب الأمية ، ولتتشدد فى التعليم الثانوى والعالى لنقلل من عدد العاطلين فى ظاهر الأمر ، ولنضعف الخطر على السلطان الذى لا حد له فى حقيقة الأمر ، ولندع التفكير فى أن التعليم على اختلاف ألوانه حق للناس جميعا يريدونه متى شاءوا وما استطاعوا أن يريدوه ، لا يقيدهم فى ذلك إلا الامتحان والقدرة على النهوض بأثقاله .

نعم ، ولندع التفكير فى أن الرقى الصحيح لأمة من الأمم رهين بانتشار الثقافة الصحيحة الخصبة التى يجدها الشبان فى المدارس الثانوية والعالية وفى الجامعة ، وإن الخطر المنكر على النظام الاجتماعى والسياسى معا إنما يأتى من الغلو فى نشر التعليم الإلزامى والتقصير فى نشر التعليم الراقى ، لأنه يهيىء فى البلاد جيشا من أنصاف المتعلمين أو أثلاث المتعلمين أوأرباع المتعلمين الذين لا يرون الأشياء كما هى ولا يقدرونها كما ينبغى أن تقدر . ثم لا يهيىء لهذا الجيش الخطر من المثقفين قادة مهرة يردونه عن الشطط ، ويقودونه إلى الرقى والخير .

لندع التفكير فى هذا كله ، فهناك ما هو أهم من هذا كله وأجل خطرا ، وهو أن يستطيع السلطان الذى لا حد له أن يستغرق كل شىء ، ويستأثر بكل شىء ، ويوجه الأمة إلى حيث يريد هو ، لا إلى حيث تريد آمالها ومنافعها ومثلها العليا فى الحياة .

كل شىء ضيق من حولنا ، وليس الغريب أننا لم نرق فى هذا العصر الذى خضعنا فيه لهذا السلطان ، وإنما الغريب أننا لم نتأخر ، بل ثبتنا حيث كنا حين أنعم الله علينا بالوزارة القائمة ، وليس الغريب أن عقولنا لم تزدد سعة ، وأن إرادتنا لم تزدد قوة ، وأنا لم نشق لأنفسنا طرقا جديدة فى العلم والسياسة وغيرهما من فروع الحياة ، وإنما الغريب أن عقولنا وإراداتنا ماتزال بحيث كانت من السعة والقوة ، وأنا ما زلنا نقاوم ظافرين هذه العوادى المختلفة التى سلطت علينا من كل ناحية ، وأخذت علينا كل سبيل . نعم خير ما يستطيع المصرى أن يقدمه لوطنه فى هذه الأيام إنما هو الإخلاص فى القول والعمل ، والصدق فى الرأى ، والمضاء فى العزم ، والقوة على المقاومة ، والاستعداد لاحتمال المكروه ، فإن الصراع بيننا وبين الحوادث التى تدهمنا مهما يطل أو يقصر فإنما الفوز فيه لصاحب الإرادة القوية ، والعزيمة الماضية ، والقوة على المقاومة .

وأنا أعاهد الذين سيقرأوننى أنى سأكون من هذا كله بحيث يحبون ، وما أظن أنى أستطيع أن أشكر لهم ترحيبهم بى ، وحسن لقائهم لى بأحسن من أن أعطيهم على نفسى هذا العهد .